

هاني زعرب: في طريقه نحو التجريد

يوصل هاني زعرب بحثه القلق عن لوحته الخاصة دون أن يركن إلى هوء ولو قليل، فشعور الرضى لديه هش ومؤقت. وكل لوحة هي رحم لولادة جديدة، وبالتالي فإن آخر عمل فني له لن يكون بعد حين غير إشارة صغيرة في معرض الحديث عن مسيرة تطوره الدائمة والمضطردة، وهكذا يمكن تتبع رحلة هاني الفنية في إهدائه، شيئاً فشيئاً، إلى ذاته المبدعة شكلاً ومضموناً وأسلوباً

لعل هاني كان من أوائل الفنانين الشباب الذي بدأوا رويداً رويداً التخفف من ثقل تأثيرات التجربة الأكاديمية وبقايا الحقبة الرمزية في المسيرة الفنية الفلسطينية، ليدخل في مرحلته التعبيرية سابقاً الكثير من أبناء جيله. ولم تكن هذه المرحلة التي امتدت بضع سنوات، سوى تلك الفسحة الانتقالية التي أتاحت له النزول من سماء الخطاب الجمعي ومفرداته المألوفة إلى المساحة الشخصية الخاصة والغامضة. وربما من أهم ملامح هذه المرحلة لديه أن الفنان نفسه غدا محور عمله، فكان الباحث وموضوع البحث في ذات الآن، ولعل ذلك ما جعل الكثير من أعماله تحمل ملامح شخصية حادة، قادرة على استيقافنا، ومسنا من الداخل

مكنته هذه المرحلة من البحث عن أسلوبه الخاص، وسط تزامم الكثير من مفردات الآخرين وضرباتهم وألوانهم، ووصلت ذروتها في معالجته لموضوعه الحصار، حينما وجد نفسه "كالسيف فرداً". تبدو مفردات اللوحة في هذه المجموعة واضحة وصاخبة تماماً، فجاءت الألوان خالصة وقوية وصارخة، مثل الأحمر والأصفر والأزرق، والضربات والخطوط جلية، لدرجة أن اللوحة تبدو محتشدة بطاقة درامية كبيرة. كما بدا حضور الجسد في اللوحات جلياً ومتواصلاً - ولعل هذا جاء ليتجاوب مع الصدى النفسي للتمثيلات الفيزيائية للحصار - وإن أخذ هذا الحضور تجليات مختلفة، ولكن ما كان ثابتاً هو دوام تحول هذا الحضور الذي مر عبر رحلة تقارب الإنمساخ بسبب قساوة الظروف ولإنسانيتها

ولكن سرعان ما تقود عمليات التحول المستمرة - التي هي إنعكاس للتحولات والنضج في تناول الموضوع - هذا الجسد إلى التلاشي، فتتحرر اللوحة من مركزيتها الفجة، وتأخذ إحساساً آخر. فنجد أن الألوان أخذت تخبو أكثر، وتنطفيء، لتغدو أكثر عمقاً، ويصبح إيقاعها أشد تعقيداً، ولم تعد تكتسب معانيها من حضورها وقوتها وحدتها، وإنما من غيابها وهذونها وغموضها، وبذلك نرى أن اللوحة تنفتح على التأمل، وتغدو أكثر تقشفاً وتجريداً في التكوين واللون، وبالتالي أكثر إيساعاً، الأمر الذي أخذ يتيح مساحة أكبر لأننا الفنان المخنوقة لا لكي تتنفس بهوء فحسب - بعد أن صرخت كثيراً سابقاً - بل لتتماهى بآناة في فعل الرسم ذاته، وعلى سطح اللوحة، وفي عمقها، فتغدو هي اللوحة بعد أن كانت اللوحة أشبه بسجن لها

وبذهاب الفنان نحو التجريد، نجده يبدو أكثر قدرة وحرية على التعامل مع اللون والتكوين بشكل يحرق اللوحة ذاتها من محدداتها، ويفتحها على المطلق، فتغدو فضاءً يفتح على إمكانات جديدة للتكوين والتأويل، ويجعل الفنان نفسه أكثر تحلاً من إملاءات ما هو خارج اللوحة على داخلها، فتأخذ علاقته باللوحة منحى أكثر صوفيةً، وتغدو إتصالاً مباشراً من داخل لداخل

محمود أبو هشيش

رام الله 2006